



HAL
open science



قصة الحب والهجر والطلاق

يرمي هذا البحث إلى وصف واقع الحال بين اللغات من جهة والترجمة من جهة أخرى فيصِفُ ما ساد بينهما من علاقة قامت على جمع القطبين وتراوحت بين الحب فالإرتباط فالمناوشات حتى وصلت إلى الهجر فالطلاق ولا غالب ولا مغلوب.

في السراء والضراء:

إنّ الرباط الذي جمع مفهوم اللغات بمفهوم الترجمة كَوّنَ في أذهان الناس صورةً عن الزوج : يكفي أن نذكرَ الأول حتى يتبادر إلى الأذهان فوراً الثاني. وككلّ زوج لا بدّ لطرفٍ أن "يستوعب" الطرف الآخر أو أن يكون قوَّاماً عليه. وقد جاء في "لسان العرب"¹: القِيم " السيد وسائس القوم وقِيم القوم : الذي يقومهم ويسوس أمرهم وقِيم المرأة : زوجها لأنه يقوم بأمرها وما تحتاج إليه". وعلاقة الزوج : اللغات والترجمة ليست علاقة سواسية وعلاقة النذّ بالنذّ بل هي علاقة تقوم على اتفاقٍ محدّد بين الفريقين أساسه الرضا المتبادل. وهو ككلّ العقود المبرمة بين الأزواج يقضي بأن يؤمّن الفريق الأول الرعاية والأمن على ان يقدم الفريق الثاني الطاعة والإنصياع. ولعلّ من يقرأ تاريخ الترجمة يكتشف إلى أي مدى كانت الترجمة جزءاً لا يتجزأ من اللغة ؛ وكيف انها اقتصرت على تمارين لغوية تبرهن مدى كفاءة الطالب في النقل إلى لغته الأم. وقد خضعت الترجمة لقواعد اللغة واعتُبرت جانباً من جوانبها. واعتمدت الطرائق التعليميّة القديمة (مثل طريقة "الجمل"² التي وضعها الأب "دالفرني" وطريقة³ Assimil) على الترجمة كعماد أساسي في تدريس اللغات الأجنبية الحيّة. وعملية الترجمة هذه شكّلت سيفاً ذا حدّين بالنسبة للنصّ المصدر والنصّ الهدف على حدّ سواء.

¹ لسان العرب ، لابن منظور ، ج 12 - دار صادر - بيروت

² طريقة Assimil : وعُرفت أيضاً بسلسلة "بلا عناء" مواد لتعليم اللغات الحيّة ومنها الإنكليزية والفرنسية والبرتغالية والإيطالية...- وتصدر عن مكتبة لبنان.

³ طريقة الجمل أو ما يُعرّف بـ "cours de langue arabe" وضعها الأب دالفرني A. D'alverny في بكفيا عام 1949 وصدرت عن دار المشرق.

فبالنسبة للنصّ المصدر يقتصر عمل المترجم على "التشريح اللغويّ" للنصّ. فيستعين المترجم بقواعد اللغة وهو بعمله هذا لا يتوخى فهم جوهر النصّ أي روحه بل يحاول أن ينقل التراكيب ذاتها من لغةٍ إلى أخرى وقد تتوزع التمارين على تحديد صيغة الأفعال مثلاً أو رصد المفاعيل أو مراقبة تركيب الوحدات إلى ما هنالك من تمارين لغوية تفكّك جسد النصّ ولا تصل إلى الروح أو الجوهر أي إلى الفهم.

ومردُّ ذلك أن المترجم يتعامل مع النصّ المصدر كنصّ جامدٍ أو مومياء فيقتصر عمله على إيجاد مقابل لكلّ مفردة في النصّ المصدر ويترجم بالرصف لأنه عاجزٌ عن الفهم ويقع بالحرفية. وقد تتفاوت مستويات الترجمة بحسب كلّ مترجمٍ ودرجة اتقانه اللغة الأم وإمكانياته في تطويع اللغة خدمةً للنصّ الهدف. وعملية النقل هذه أبعد ما تكون عن الترجمة لأنها تسطح اللغة وتحوّل النصّ الهدف إلى سلسلة مفردات متعاقبة لا رابطاً بينها. وتؤدي عملية النقل هذه إلى خلق هوةٍ كبيرةٍ بين اللغتين والأسباب كثيرة.

أما السبب الأول فيتعلّق بقواعد اللغة ويرى بعض فقهاء اللغة⁴ أن التفاوت موجودٌ أصلاً بين اللغات؛ وهم يعتبرون اللغة الأم بقواعدها اللغوية كمقياسٍ لباقي اللغات وهي بنظرهم "أسمى" من باقي اللغات. وطبيعيّ أن يتحوّل فعل الترجمة في حالة كهذه إلى مقارنة لغةٍ بلغةٍ وبالتالي إلى فوقية لغةٍ على لغةٍ والواقع أن حصر الترجمة بهذه النظرة الضيقة يخلُّ بعلاقة التكافؤ بينها وبين اللغات ويؤدي إلى خضوعها قسراً لشروطٍ لا تقبلها ولا تقرُّ بها.

أما السبب الثاني فيتعلّق بالتراكيب. ولعلّ عدم الفهم يأسر المترجم بقالبٍ محدّد ويفرض عليه نمطاً معيّنًا في التعاطي مع النصّ المصدر. فقد يحاول المترجم - رغبة منه في الحفاظ على الشكل "المثالي" للنصّ المصدر - (يحاول) أن ينقل التركيبة ذاتها إلى النصّ الهدف. وقد يذهب إلى حدّ المغالاة في الحفاظ على بنية النصّ المصدر فيكون نتاجه نصّاً بالعربية صيغاً بتراكيب أجنبية. لعلّ الولاء الأعمى للنصّ المصدر وتراكيبه هو دلالةٌ واضحةٌ على مدى فوقية لغةٍ على أخرى وبالتالي على سيطرة التيارات العقائدية على اللغات لفترةٍ من الزمن.

⁴ . الصاحبى: " في فقه العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها " - منشورات دار الكتب العلمية - بيروت - ص. 19

في أبغض الحلال؟

إزاء هذا الوضع تقف الترجمة حائرة، فهي بين خيارين أحلاهما مرّ، فأيهما تختار؟ هل تبقى خاضعة للغة ويفتصر عملها على تشريح لغوي أم تنكفي لتصبح عاملَ مقارنة بين اللغات؟

صحيحٌ أن اللغات استوعبت الترجمة لفترةٍ طويلة وأبقتها في كنفها وتحت رعايتها إلا أنها حجّمت دورها ونسيتها في الظلّ لتنفيذ مآرب خاصة. فهم تقبل الترجمة بهذا التعسّف بحقّها بحجّة شروط العيش المشترك؟

علاقة الحب غير المتكافئ هذه دفعت الترجمة إلى التفكير ملياً بالإستقلالية. ولكن كيف لها أن تستقلّ بعد أن قضت رداً من الزمن تحت رعاية اللغة؟ وسط تساؤلات الترجمة عن مستقبلها وماهيتها برزت الألسنية وحاولت بمعسول كلامها أن تتلقّف الترجمة وتبعدها عن سيطرة اللغة. ومعسول الكلام أغوى الترجمة ففيه وجدت مفاهيم تخصّها مثل المرسل والمرسل إليه والمرسلة ولغة الإنطلاق ولغة الوصول. في حضن الألسنية وجدت الترجمة نوعاً من العزاء وبالمفاهيم المتداولة وجدت الراحة والإنسجام.

واكتشفت الترجمة أنها لا تقوم على قواعد اللغة فحسب لأنها عملية تخاطبية – تواصلية بالدرجة الأولى بل هي بحاجة إلى سلسلة عوامل تساعد على تقوية مكانتها وتحديد أهدافها.

ومع الألسنية اكتشفت الترجمة كفاءاتها؛ فهي قادرة على التزييّ بألف زيّ لأداء مرسلة واحدة مثلاً: ترجمة رواية محدّدة إلى عدّة لغات. قد تأتي الترجمة مختلفة من لغةٍ إلى أخرى إلا أن المرسلة وهي أحداث الرواية تبقى ثابتة وواحدة.

وارتكزت الترجمة على المرسلة وهي محور كل عملية ترجمة. والمرسل والمرسل إليه ووجدت في هذا الثلاثي خير حليف وظنّت لو هلة أنها بمساعدته يمكنها أن تنطلق وتستقلّ. إلا أن آمالها سرعان ما تبدّدت عندما عرفت أنه ما زال

يُنظَر إليها على أنها مرتبطة باللغة لا وبل أكثر من ذلك أنها تستعمل لوصف آلية اللغة " : إذن هي تُستغلُّ "كعامل مقارنة" لدراسة اللغة ووصف آليتها⁵.

ولعلّ ما زاد من خيبة الترجمة أن الألسنية بدأت تضيّق عليها الخناق. وصارت تراقبها وترصد تحركاتها وحددت لها عملها بثلاثة أهداف : الفهم والإفهام والتواصل.

أ – هي أولاً عامل فهم لأننا نعتمد على الترجمة لفهم نصّ بلغةٍ ليست لغتنا الأم. وغالباً ما تكون هذه العملية فكرية تحصل عندما لا نتقن اللغة الهدف إتقاناً تاماً ؛ وفيها يتماهى كلُّ من المرسلِ والمتلقي.

2 – هي ثانياً عامل إفهام لأننا نعتمد على الترجمة لفهم نص شفهي أو كتابي بلغةٍ ليست لغتنا الأم فيتدخل وسيطٌ بين المرسلِ والمتلقي لتخطّي حاجز اللغة.

3 – هي ثالثاً عامل تواصل لأننا نعتمد عليها لتعلّم لغة حيّة جديدة .

في الكفيل :

أمام هذا الواقع الجديد لملت الترجمة جراحها وانكفأت تبحث عن حلّ وفكرت أن لا مفرّ من الطلاق فهي سئمت حياة القيد والدونية : تراقب تصرفاتها وترصد تحركاتها. فهي لا تعرف الثقة الشخصية مع اللغة ولم تنعم بالحرية مع الألسنية. ووقفت تدافع عن نفسها. فهي ترفض أن تكون حكرّاً على اللغة وترفض أن تكون فعلاً ألسنياً وترفض أن تختصر بالفهم والإفهام والتواصل.

صحيحٌ أنها تسعى إلى كسبِ حريّتها الشخصية ولكن ليس على أساس الخصام !
وصحيحٌ انها ترفضُ أن تُنسبَ حكرّاً إلى كلّ واحدٍ من هذه العناصر ولكنها في الوقت عينه بحاجة إليها جميعاً معاً!

⁵ "Vinay et Darbelnet" : "Stylistique comparé du français et de l'anglais."

le passage d'une langue A à une langue B, pour exprimer une meme réalité X, passage que l'on dénomme habituellement traduction, relève d'une discipline particulière, de nature comparative, don't le but est d'en expliquer le mécanisme et d'en faciliter la réalisation par la mise en relief des lois valables pour les deux langues considérées. Nous ramenons ici la traduction à un cas particulier, à une application pratique de la stylistique compare".

عملية كراً وفرّ؟ بالطبع لا! فالترجمة لا تراوغ في علاقتها وكيف لها ذلك وقد استمدت قوتها وحياتها من الألسنية واللغة على حدّ سواء؟ وفكرة الإستقلالية طرحت للترجمة اشكالية جديدة: فلو افترضنا حكماً أنها استقلت، فتحت أي لواء تنضمّ؟ اللغة؟ أم الألسنية؟ أم الأدب المقارن...؟ أم غيرها من الفروع المستثمرة أو قيد الإستثمار؟

ولو افترضنا حكماً أنها استقلت فهل بوسعها أن ترعى نفسها بنفسها دون قيّمٍ عليها وهل بوسعها قطع العلاقة تماماً عمّا كان في حياتها أو حيواتها السابقة؟ قد يفكر البعض إن في تصرف الترجمة نوعاً من المجازفة فهي سرعان ما ستعود إلى حضن الحبيب وتطلب السماح لنزوة طيش أصابتها.

ويقول البعض الآخر أنه قد آن الأوان للترجمة للتفكير ملياً بالإستقلال والبدء بإنشاء كيانٍ خاص والتفكير بالمستقبل. والحقيقة أن تفكير الترجمة بالإستقلالية لم يكن مجرد نزوة عابرة أو مجازفة قصيرة الأمد؛ لأن إقدامها على تحقيق فكرتها أدى إلى نشوء علم خاص بها وهو يُعرف بالترجمة. إلا أن نشوء هذا العلم في الحقيقة ارتبط بمسار الترجمة أي أنه ليس حديث العهد. فمن يقتفي أثر الترجمة عند العرب يكتشف أن "علم الترجمة" بدأ منذ القدم واستمر إلى أيامنا. إلا أنه بقي علماً مغموراً لفترة طويلة ولم يُعرف ككيان مستقل بسبب الخلط بين نظريات المقارنة بين اللغات والترجمة من جهة وبين التفكير في الترجمة أي طرائق⁶ الترجمة من جهةٍ أخرى.

وقد ركزت على فكرة علم الترجمة واستقلاليتها كلُّ من الزميلتين "مي عقل" في أطروحتها الدكتوراه المَعنونة: "الترجمة تفرع باب العلم" و "مي الحداد" في أطروحتها المَعنونة: "على خطى الترجمة: من الجاحظ إلى الياس أبو شبكة".

فقد توقفت الزميلة "مي الحداد"⁷ بدراستها التحليلية عند الإشكاليات التي تبلورت في علم الترجمة في التراث العربي فأكدت أن العرب كانوا السباقين في طرح

⁶ Delisle, Jean: "cahiers de traductologie" no 2, Ottawa, Les Presses de l'Université d'Ottawa – 1980.

"On cherche encore à quelle enseigne la loger : la linguistique appliqué, la psycholinguistique ? la sémiotique? La littérature comparée? La didactique des langues? La psychologie cognitive? L'ethnologie? La science de la communication ? Autant d'avenues explorées ou à explorer, et aucune ne s'est encore révélée, à elle seule, pleinement satisfaisante".

⁷ مي حبيقة الحداد، "على خطى الترجمة العربية، سلسلة المصدر الهدف – جامعة القديس يوسف – 2010 ص. 335.

بعض الإشكاليات الترجمية وخلصت إلى أن التنظير في الترجمة أو الترجمة هو علمٌ قديمٌ ظهر في الكتابات العربية القديمة ومارسه "بعض الكتاب العرب ربما على غفلةٍ منهم".

أما الزميلة "مي عقل"⁸ فقد أجرت دراسةً شاملةً حول علاقة الترجمة بالعلم والإشكاليات التي تفصل ما بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية وبعد أن تدرّج بمحطات تطور الأبحاث حول الترجمة، تتوصّل إلى الإثبات أن الترجمة علم مستقلٌّ وتنتهي "بتفسير وصفي علمي لعملية الترجمة ككلّ وللترجمة كميدان علمي جديد يشقّ طريقه نحو العلوم الإنسانية".

صحيحٌ أنّ الترجمة ولجت ميادين عدّة واستقت من كل ميدان ما يُغني كيانها ويساعدها على التطوّر واستطاعت الترجمة أو تولفَ من خبراتها كلها وتخرج بعلمٍ محدد له شروط وقواعد واضحة وهو الترجمة.

صحيحٌ أنّ وجهات النظر تتضارب حول الترجمة بين مؤيّد ومعارض ولعلّ السبب هو أن هذه الأخيرة أبقت على شعرة معاوية في كلّ علاقاتها الجديّة والعبارة. فقد ولجت ميادين عديدة وتركتها بدون نزاع بل بالعكس استقت من كل ميدان ما يُغني كيانها ويساعدها على التطوّر. من هنا، يمكننا القول إن حياتها كانت عبارة عن سلسلة مغامرات خرجت منها الترجمة رابحةً ولو مع طعم مرارة بسبب الحبّ المنكسر. ولعلّ مصطلح التوليف هو خيرٌ وصفٍ لعملية الترجمة.

⁸ . مي طوني عقل، " الترجمة تقرع باب العلم - سلسلة المصدر الهدف - جامعة القديس يوسف 2009 - ص. 12 - 13

وبعد، قيل إنّ الحرب لن تقع بين اللغات والترجمة وما يؤكّد ضمانه عدم نشوب الحرب ليس انتشار قوات حفظ السلام او كثافة مهام الوسطاء بل هو الحدود الواضحة والمرسّمة بين مختلف الفرقاء يتمسّك كلّ فريق بكيانه ويحافظ على أراضيه ويضمن استقلاله فلا يتأثر بمناوشات قد تقع من غير أن تؤدي إلى هزّ الكيان أو تدميره!

إلا أن ترسيم الحدود يفرض واقعاً مختلفاً، فبحكم الجيرة ستبقى العلاقة قائمة بين اللغات والترجمة. وواقع الجيرة سيفرض حركة تبادل بين القطبين وهذه لا تتم عن طريق التهريب ولا تحت جناح الظلام بل في وضوح النهار لأنّ الحدود مشتركة ومفتوحة بين الأطراف كافة : من هنا تنشأ دينامية جديدة بفعل عملية الأخذ والردّ فيعتني كل قطب بالآخر.

قائمة المصادر والمراجع

- **Delisle, Jean** : « Cahiers de traductologie » no 2 Ottawa-les Presses de l'Université d'Ottawa – 1980.
- **Lee-Jahnke, Hannelore** : « Enseignement de la traduction et traduction dans l'enseignement » - Les Presses de l'Université d'Ottawa – 1998.
- **Laplace, Colette** : « Théorie du langage et théorie de la traduction – Collection traductologie no 8 – Didier erudition – 1994.
- **Pergnier, Maurice** : « Les fondements sociolinguistiques de la traduction » . Presses universitaires de Lille – 1993.
- **Vinay et Darbelnet** : “Stylistique comparé du français et de l’anglais.
- أبو فاضل ، حردان ، فغالي، عويس : " مصطلحات تعليم الترجمة". سلسلة المصدر والهدف – منشورات جامعة القديس يوسف.
- ابن منظور : "لسان العرب" دار صادر – بيروت.
- الصاحبى: " في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها" منشورات دار الكتب العلمية – بيروت لبنان 1997.
- طريقة Assimil أو طريقة الدراسة اليومية ، سلسلة بلا عناء – مكتبة أنطوان ش.م.ل 2006.
- " طريقة الجَمَل" أو Cours de langue arabe – دار المشرق.
- مي حبيقة الحداد، " على خطى الترجمة العربية، سلسلة المصدر الهدف – جامعة القديس يوسف 2010 - ص. 335.
- مي طوني عقل، " الترجمة تفرع باب العلم – سلسلة المصدر الهدف – جامعة القديس يوسف 2009 – ص. 12 – 13.